



دراسات في الفن

النحت فن الصمت

على ذكر مصرعه مختار

للاستاذ عزيز أحمد فهمي

— — — — —

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من طين فكان الإنسان
تجسيدا لما جرى في علمه تعالى من صوره ، وكان الإنسان مجالا
لطائفة من آيات الله أراد لأحر أن يراها حية على مسرح الكون
هذه حقيقة لا أجبر القارىء على أن يؤمن بها متى وفق
ما أراءه ، وإنما أدعه يؤمن بها على هواه ، فإذا كان من

تربية ، ويعتقدون أن من صدرت عنه لم يدرس آداب المائدة بناية
كذلك يوجهون أهمية كبرى لسلوك الإنسان على المائدة فيشعرون
إلى أنه كثيراً ما يلاحظ على رجل تظهر عليه سمات الثقافة والرقى
وهو جالس حول مائدة بعض المطاعم أو الفنادق الراقية ، أنه
ينبأ بأدوات المائدة ، أو يضرب الأكواب بعضها ببعض دون وعى .

وقد يتفاخى عن أشباه هذا السلوك في الفنادق
أو المطاعم ، ولكن حدوث أعمال كهذه على مائدة ولية رسمية
يتميز من أكبر القائص الأدبية ، فإنه حينما لا يحتاج إلى استخدام
الأيدي يحسن وضعها على الحجر في سكون ، كما لا يحسن وضع
المرفقين على المائدة إذا أسيء السلوك في فعل ذلك ، ولا أن يوضع
الكرسي قريباً جداً من المائدة ، ولا يبعد جداً عنها . فكل
الأميرين غير مقبول

نرجب الحكيم

أصحاب الدين فهو متى ، وإذا لم يكن منهم فهو متى أيضاً ، ولكن
بعد فرقة قصيرة لا بد أن يلتقي إثرها ليشهد أن الإنسان كان
التمثال الذي يرجع إليه الشاؤون جميعاً مستوحين مستلهمين ،
ومتعلمين دارسين ، وباحثين مدققين ، ومعجبين مأخوذين وليشهد
أيضاً أن الإنسان ما يزال هو هذا المنبع الذي لم ينضب منذ
تقبة الفن ، وليشهد بعد هذا وذلك أن الإنسان لن ينفك أن
يكون المورد الذي يقصد إليه كل من ينهره الفن الناضج الكامل
هذه هي البداية التي يجب أن نلتقي عندها لنمشي معاً ولننظر
بعداً إلى الإنسان — وهو مرجع الفن — كما ينظر إليه
النحات الفنان

أى شيء في هذا الإنسان ؟ وأى شيء في الحيوان معه ؟
وأى شيء أغرى المثاليين بأن يكتروا من تماثيل الناس إكثاراً
ملحوظاً ، فلم يحيدوا عنها إلا إلى الحيوان قليلاً ، ثم لم يرضوا
بعد ذلك أن يرجعوا على النبات والجماد فيستقوا منهما فناً ؟
إنها هي الحياة من غير شك — والحركة مع الحياة — فليس
شيء يميز الإنسان ومعه الحيوان أمام النحت على النبات والجمال
غير الحياة والحركة . فإذا قلنا « الجمال » رأينا في الزهر والجوهر
جمالاً ؛ وإذا قلنا « الجلال » رأينا في الدوح والجبل جلالاً ،
وإذا قلنا « الصوت » رأينا النحت يهمله لأنه يقصر عنه ... —
فلم يبق — فيما أظن — للإنسان والحيوان مميّزاً على غيرها
في رأى النحت إلا الحياة والحركة كما قدست .

فما هي الحياة ؟

أهى في نظر النحات هذا النمو الجسدى الذى يقود الإنسان
من طفولته إلى شيخوخته ؟ أم هي هذا الاضطراب النفسى الذى
لا يبدأ فوراً بين جنبيه مادام حياً والذى يثاب وجهه وتقاطيعه
وقبائه بالتعبير المتواصل الذى تصور كل حالة من حالته زعدة

من رعدت هذا الفوران أو هدأة من هدأته؟ أم هي هذا وذاك؟
بعض المثاليين يذهب في فنه — سواء أكان متمعداً أم غير
متمعد — إلى المذهب الأول ، وبعضهم يذهب المذهب الثاني ،
وبعضهم لا يذهب مذهبا من هذين وإن كان يجمع في فنه ما يوفق
إليه الأوائل ، وما يهتدى إليه الأواخر ... توفيقاً وهدياً

أما أصحاب المذهب الأول فقد كثروا في مصر في هذه الأيام ،
فكل معارض النحت التي تقام في مصر الآن لا تحوى من التماثيل
إلا ما تنفأ أمامه لتقول إن هذا التمثال يمثل رجلاً في السبعين ،
أو فتاة في العشرين ، أو صبياً في العاشرة ، أو طفلة في الرابعة ...
أما هذا الفوران الذي نذكره فهو سيد عنهم ، وهم بعيدون عنه .
ولعل ذلك يرجع إلى أن النحت فن لا يزال ينتفض تحت أثقال
السنين التي تراكت عليه في مصر فدفتته وكتمت أنفاسه دهوراً
وأما أصحاب المذهب الثاني فهم الذين كنا نتوقع أن نرى لهم

أثراً ملحوظاً في معرض مختار الأخير . فقد طلب من المتسابقين
في هذا المعرض أن يسجل كل منهم في تماثله معالم الصلاة ومعانيها
أو ما شاء من هذه المعالم والمعاني ، فإكان من حضراتهم — أو من
أغلبهم — إلا أن سجلوا من حركات الصلاة ما طاب لهم ،
موجهين كل اهتمامهم إلى إظهار تمكنهم من دراسة التشريح ،
وإبداء مقدرتهم على محاكاة جثة الإنسان . وعلم الله أنى لا أعرف
ممن كانت تتألف لجنة التحكيم في هذا المعرض وإن كنت موقناً
بأنها ضمت صفوة مختارة من المثقفين الأفاضل ؛ غير أنه يخيل إلي أنهم

كانوا بعيدين إلى حد كبير عن هذا الذي نسميه « ما وراء المظهر » .
والدليل على ما أقول أنهم منحروا الجائزة الأولى تماثلاً أزرق يمثل
شيخاً معماً مهتماً جالساً على حصيرة أنيقة جلسة يجلسها المصلون
إذا ما فرغوا من صلاتهم وراحوا يسترجعون في أذهانهم
ما أنفقوه وما كسبوه في يومهم ، ويستعيدون إلى ذاكرتهم ما قيدوا
أنفسهم به من مواعيد أعمالهم أو لهوهم ... كل هذا والمسايح
في أيديهم تجري حياتها بين أصابعهم ! حبة تضرب حبة كدقات
الساعات في جيوبهم لا هم انشغلوا بها ، ولا هم لفتهم إلى أوقاتهم .
هذا التمثال الذي لا يطالع ناظره بأى معنى من معاني الصلاة أعطى
الجائزة الأولى لأن مظهره حسن في أعين حضرات المحكمين .
والحق أنه أهل للجائزة ولكن على أن يقدم في مسابقة يكون

موضوعها : « الجلوس على الحصيرة » لا « الصلاة » !
أما تماثيل الصلاة فقد كان له أشباه في المعرض لست أدري
كيف غمضت عنها عيون المحكمين ، فقد كان في المعرض تماثيل
لشيخ قان يقرأ التحيات ، ويومئ بسبابته اليمنى شاهداً أن لا إله
إلا الله ، وعيّل بكتف إلى جنب ميلة من ثقلت عليه الحياة فصر ،
ولكنه تماثل فضف وأن له أن يتحطم ، ولكنه استعان على
ماضيه وحاضره ومستقبله ... بالصلاة . وكان في المعرض أيضاً
تماثيل لرجلين أحدهما كبراً ووقف يتلو الفاتحة ، والآخر لحقه
فانتم به ورفع يديه ينوى الصلاة وراءه ... وقد ألفت النظرة
الأولى على هذا التمثال فلم أملك إلا أن أتلو ، فقد نحسني وجه
ذلك الرجل المتلف على الصلاة نخسة موجبة . ذلك أن صاحبه
أفرغ في وجهه روحاً من البله والتمته كانت أمر سخرية من
صلاة الكثيرين !

كان هذان التمثالان في المعرض وأولهما يكاد يفعم قلب الناظر
إليه إجلالاً وخشوعاً إذا كان الناظر قد جرب الصلاة مثقلاً
بالذنوب وبالحياة ، مؤملاً في رحمة الله ومغفرته ، مسلماً له شأنه ،
مفوضاً له أمره . وثانيهما كما رأيت فيه هذه الفكرة العجيبة
الجريئة الشاذة التي يتقدم بها صاحبه صلاة الكثيرين من المصلين ..
ومع هذا فإن هذين التمثالين قضيا ما قضيا من الأيام والليالي
في صالة الكنتنتال ، وحظيا ما حظيا بشرف الثول بين يدي
معالي وزير المعارف وزملاء معاليه وزميلاته ، ولم يلق عليهما واحد
من هؤلاء تحية ، ولم يسعدهما من أولى الحل والربط في فنون
هذا البلد نظرة تقدير أو إعجاب

ولندع الآن الحديث عن معرض مختار لنعود إلى ما كنا فيه
من الحديث عن فن النحت نفسه ، ولنحدد مكان هذا الفن من الفنون
الجميلة . وأحسبني الآن في غنى عن تكرار التدليل على أن الحواس
الإنسانية هي منافذ النفس ، وعلى أن النفس تحصل عن طريق
هذه الحواس على أحاسين وانفعالات وعواطف مختلفة ، فتخلطها
وتمزجها وتنتجها بعد ذلك فناً تعبر به عن اتجاه صاحبها في الحياة .
فإذا كنت في غنى عن هذا فإن على أن أقف عند النحت وقفة

خاصة أقرر فيها أن النحت هو فن الصمت وأنه بهذا كان أقرب الفنون من التصوف . فالنحات يسجل في تمثاله خفقة واحدة من خفقات الروح لا يفتأ ينتظرها ويتوقعها ويبحث عنها حتى إذا ما سطعت له مرتسمة على الجسم عامة ، وعلى الوجه خاصة ، تعلق بها وطبعها على روحه أو قل إنه يطبع روحه عليها ويرصدها عنده إرصاداً ويقفها عليها وقفاً . وهو بهذا يختلف عن الأديب الذي ينتقل في موضوعه من خاطر إلى خاطر ، والذي يطلق وصفه لهذه الخفقة نفسها من ناحية إلى ناحية ، والذي يأخذ قارئه في طوافه بها من جانب إلى جانب ، وهو في هذا غير الموسيقى الذي يسلسل اللحن ويوالى التنعيم ليؤدي باللحن بعد تمامه ما يؤديه النحات باللمحة التي خطفها من الطبيعة وثبتها في تمثاله فخلدها عليه . وهذا الأداء الذي يؤديه النحات لمواشيق وأعصى ما يرجوه الفن من الفنان ، فليس يبرأ أن يلحظ الإنسان كل ما ينتاب الناس من اهتزازات الروح ؛ وإذا كان من هذه الاهتزازات ما يبقى مواجهاً للعين والحس لحظة أو لحظات ، فإن فيها ما يتلاشى أثناء تكوينه ... كلفه الإحجاب التي تنتاب امرأة متزوجة عند ما تلح تحت بصر زوجها ومعه شاباً يروقه ، فهي لا تكاد تسمح لوميض الإحجاب أن يلح في عينها إلا ربما تهب عليه نسمة من خجلها وريائها أو عفتها تطفئه وتخمده . هذه اللمحة قد يصفها الكاتب ، وقد يصفها الشاعر ، وقد يصفها الموسيقى موصولة بغيرها ؛ وقد تؤديها ممثلة خيراً من أدائها إذا كان بين النساء ممثلات فيمن من دقة الفهم والحس ما يقف بهن عند هزة خاطفة من هزات الروح كهذه ؛ وقد يؤديها أيضاً رسام مستعيناً عليها بالألوان والظلال ... ولكنني لا أتصور أن فناً من هذه الفنون جميعاً يؤمن عليها مثلما يؤمن عليها النحت المادي . ذلك أن قلة الأدوات التي يستعملها النحات في فنه تبعته على الاستمالة عن التيسير الذي تتيحه الأدوات لأصحاب الفنون الأخرى بطاقة كبرى من روحه يجود بها على فنه ، إذ ما قد يستطيع غيره أن يملك من شمع النفس لا يملك النحات إلا أن يبذله

والنحات لا يهتدي إلى أمثال هذه اللحات السريعة التي رأينا إحداها إلا إذا عاش وهو حديد البعر يكاد يلتهم كل ما يراه ألهاً ، فإذا ما وقع على شيء مما يطلبه جددت عنده نفسه . وما أشق

جود النفس على صاحب الفن ، ولكنه عند النحات هو السبيل الوحيد الذي يرصد به فنه لا يفتنه عنه التسجيل على الورق ، ولا ترضيه عنه الاستعادة والاستدكار ، فهو إذا قنع بهما رأى آخر الأمر أنه فقد شيئاً مما كان يطلبه ، وهو لا يريد أن يفقد مما يطلب شيئاً لأنه يطمع دائماً في الترفيق إلى محاكاة صنع الله لأنه يدرك أنه ليس وراء فن الله فن . لهذا كان أكل المثاليين هو هذا الذي يستغرق في موضوعه منذ أن يهتدي إليه إلى أن يؤديه ؛ وهذا الاستغراق - كما قد يعلم القارئ - يركز إحساس النحات أو المثالي في لحظة من حركة أو سكون من سكنات وضع . وعلى من يريد أن يتصور مشقة هذا وثقله على النفس والروح والبدن أن يجربه وأن يرى كم من الزمن يستطيع أن يستمر فيه ... فليتسم ابتسامة رضى وليشعر معها بالرضى وليظل هكذا ولير كم يستطيع أن يظل ؟ فليقطب تقطية أسي ، وليشعر معها بالآسى وليظل هكذا ولير كم يستطيع أن يظل ؟ !

هذا عمل لا يستطيع غير النحات أن يؤديه ، وهو لن يكون نجاحاً متمكناً إلا إذا استطاع أن يؤديه ... ومن العجيب أن النحات يطلب من أتمودجه أن يكون مرآته ، وأن يعينه على هيئة الجو الذي يريد أن يندمج فيه ، وهو في هذا معذور مسكين ... فهو حين يؤدي بروحه وبجوارحه ما يريد أن يسجله لا يرى نفسه ولا يستطيع أن ينقل عن صورته ... عندئذ يضطر أن يشرح للأتمودج ما يطلب أن تكون عليه هيأته ؛ وقليل ما يوفق النحات إلى طلبته ، ولعل قلة التوفيق هذه هي التي تاتي في نفوس النحاتين الغرام بنماذجهم المطاوعة ، فكما سمعنا بنحات يتزوج من أتمودجه بعد أن يفرغ من صنع تماثيلها مهما كانت هذه الأتمودج فقيرة أو جاهلة أو ساقطة ... فهو لا يرى فيها إلا أنها امرأة تتاقى حبه وتمكسه في وجهها

هذا هو النحات الحساس كما يريد الفن أن يكون وهناك نحات آخر فيلسوف صاحب فكرة يرمز إليها بتمثال . ولعل مختاراً رحمه الله كان من هذا النوع حين أراد أن يكون من النوع الثاني فلم تسمفه موهبته . ونظرة واحدة إلى نهضة مصر مع نظرة واحدة أخرى إلى تمثال سيد زغلول في القاهرة أو في الإسكندرية تؤيدان هذا الرأي الذي أذهب إليه ، فهمة أبي الهول

الفن كما تلاشى فيه مختار . فأتى لا تجد اليوم واحداً من النحاتين المصريين إلا وتراه يحدثك في إصراف عن الفن القوي، فإذا نظرت إلى التماثيل المصرية التي تنصب في المعارض اليوم تذكر عليك أن تؤمن - مهما تعمدت هذا الإيمان - بأن الذين أنتجوا هذه التماثيل مصريون . ولو أن هؤلاء الشبان ربوا تربية فنية قومية صحيحة لأنتجوا فناً مصرياً صحيحاً . ولعل وزارة المعارف إذا كانت تهتم بأن تنتج فناً قومياً تفكر منذ اليوم في نقل قسم النحت من مدرسة الفنون الجميلة العليا إلى أسيوط

وأخيراً ، فإنى لا أستطيع أن أدع هذا الموضوع قبل أن أذكر الفن المصري أو الفن الحديث أو الفن « المودرن » كما يسمونه وقد بدأ يزحف إلينا ، وراح يروج له أنصار السرعة من النحاتين الذين لا يطبقون دراسة الصناعة اللازمة للفن . فهم يجيزون اضطراب النسب في الأجسام ، ونشوز الحركات والأوضاع ، معتلين هذا التجاوز بأنهم قوم لا يعبأون إلا بالفكرة والروح ...

هؤلاء لهم دينهم ولنغيرهم دين يؤمن أصحابه بالله وبفن الله ، ويسبحون به مرحباً وموئلاً ، فهو سبحانه وتعالى النحات الأول ، وإنه سبحانه وتعالى هو الفنان الأول ، فأى تماثيل كإنسانه ؟ وأى كلام كقرآنه ؟ وأى أغنية يمكن أن تكون أبلغ وأصدق من أناشيد زبوره وألحانه

عزيز أحمد فهمي

لَيْلَى الْمَرْصِيَّةُ فِي الْعِرَاقِ

كتاب بفصل وقائع ليلي بين القاهرة وبنداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ، ويشرح جوانب كثيرة من أصرار المجتمع وسرائر القلوب في مصر والشام والعراق

ينبع في ثلاثة أجزاء وثمن الجزء ١٢ قرشاً
ويطلب من المكتبات النهرية في البلاد العربية

في التمثال الأول ليست إلا رمزاً لفكرة معجزة في سهولتها أدى بها مختار معنى النهضة بما لا يمكن - في إيماني - أن يبتدى فناني إلى ما هو أسهل وأبلغ إيجازاً منها في الوقت نفسه . فكمن العيون رأت أبا الهول القديم رابضاً ريبضته ، وكمن القلوب أحست أيام الثورة بزعة مصر إلى التوثب ، وكمن العقول اهتدت إلى التوفيق بين ما تراه العيون وما تحسه القلوب غير عقل مختار كان مختار إذن صاحب فكرة ، فهل كان من الحس في مقام يداني مقامه من الفكر ؟

قد يجب أنصاره وأصدقائه أن يجاملوه - وعلى الأخص بعد وفاته - فيعرفوا له بهذا الذي أريد أن أثريته قبل أن أقول كلتي فيه ؛ بل الذي لا أريد أن أقول كلتي فيه إلا بعد أن أحيلهم على تماثيل سعد زغلول وأرجوهم أن يصدقوا أنفسهم حين يرجعون إليها بما ينتابهم من الشعور بعد النظر إلى التماثيل ، فإن لم يكفهم النظر فليخضعوا إليهما زمناً ولبروا : هل يقف بهم مختار حين يقف بهم عند واحد من هذين التماثيل أمام زعيم كانت له مميزات سعد زغلول الصارخة التي أقل ما سجلها له أعوانه وخصومه : جبروته ، وكبريائه ، ونفوذه ؟ أما أنا فأتمحاشى المغالطة حين أقول إنى لا أشعر في وقفي أمام أى من هذين التماثيل بشيء من هذا الشعور ...

وما دمت قد عرجت على مختار ، فإنى أرى أنه من الوفاء لذكره أن أسجل له إخلاصه لأساتذته المثاليين القراعنة ، واصطناعه أسلوبهم الذي يميل إلى الجلال مع التبسط ، وهو الأسلوب الذي جرى عليه مختار في تماثيله جميعاً ، والذي عشقه مختار لأنه كان مصرياً صادقاً في مصريته ، ولأنه أراد باصطناعه أن يفاخر به الأساليب الغربية المتأثرة ليشهد معه أصحابها أن مصر أم الفن القديم لا تزال خصبة لم يصبها عقم ، ولم يعبث بأسلوبها الفني القدم ، ولم يقلل من روعته مر الزمن

ولقد أنشأ مختار بصنيعة هذا مدرسة جديدة في النحت لها اليوم من طلبة الفنون الجميلة العليا وخريجياتها تلاميذ ، وفيها من زملائه المدرسين فيها أساتذة ، ولكن الفرق بين مختار وبين أبناء مدرسته هؤلاء أنه شغف جاً بالفن المصري من غير أن يرسم لديه هذا خطة يتنابها قديمي الخطة ولما يتلاشوا إلى اليوم في هذا